خواطر بعد جريمة تفجير مرقد الإمامين

رسالة

د.فوز النعيمي

حاولت تجنب السقوط في دوامة وكآبة الحدث الجلل الأخير فرغم خطورته أغلقت نفسي بسمعي وبصري عن كل ما يمت إليه بصلة بل وحتى عن تناول أي تحليل عنه مع من يحسبون أنهم العارفين بحقيقة ما حدث، من الفاعل ولماذا ولمصلحة من وكيف تطورت الأمور بسرعة البرق إلى هياج عام يجتاح الخلق والأرض كفيضان عارم لسد طال تصدعه ولم يحسب له الحاكمون حسابا. لقد أورثني تفاعلي مع الأحداث عللا كثيرة لم تترك مجالا لزيادة. ما فائدة الألم والدموع، وماتقدمان من حلول بديلة؛ إنهما تعبير العاجز عن انحساره وعجزه الكلي أمام الحدث وبما أنني لست في مركز اتخاذ القرار وليس بيدي حل لمسائل لا تقدر عليها دول كبرى فكيف بشخصي الضعيف، ثم أن الدمار قد وقع فما فائدة التوجع. فلنترك الخلق للخالق. هكذا بدأت وفي محاولة لأكتساب بعض المناعة أفلسف على قدر فهمي كمواطنة مسالمة بسيطة فهمي للتعامل مع النوائب والمصائب وغالبا ما كنت أتجنب الفواتح. أجدها وان كانت عرفا اجتماعيا له قداسته يتوجب إتيانه تقديرا للفقيد ولأهله. أجدها أكبر مني فما الذي أستطيع فعله مع الموت؛ وكيف أدفعه، وكيف أخفف عمن فقدوا حبيبا عزيزا؛ وهكذا بأحساس متنام دائم بالعجز والتقصير لم أعد أرتاد الفواتح رغم تأنيب الضمير والشعور بالتقصير تجاه الأخرين وأبقى بعيدا أبكي الفقيد لوحدي وكأني أواسي نفسي لأحساسي بالغربة على فقدي للراحل أو الراحله ولكن بما أننا أصبحنا في فاتحة مشرعة الأبواب تغزو كل أيامنا والموت صار يحصد بالجملة فهو لم يعد غريبا بل حدث مألوف. نعم تموت الناس ونترحم عليهم وتبقى المصيبة لأهل المصيبة يعايشونها ما دامت الذكرى ترسخ في الأعماق. وأنا أريد لأعماقي أن تكف عن استقبال المزيد. فلا دموع. هكذا مرت خمسة أيام بعد الأزمة وأنا في محاولة عقلنة لما يدور والله أعلم بما يدور؛ بقيت كما الأخرين داخل بيتي أشغل نفسي بقضاياي الروتينية اليومية. نعم مثل كل الأخرين من البسطاء أمثالي حياتنا لها رتابتها ونادرا ما نخرج عنها ونحن نمارس أعمالنا خارج بيوتنا فكيف وقد تم فرض منع التجول رسميا؛ اليوم وهو اليوم السادس استطعت الذهاب الى مركز النيت -لتصفح بريدي الذي وجدته مكدسا بالرسائل. ألغيت الغث منها وبقيت أقلب أخبار الأهل والأصدقاء حتى وصلت إلى قريبة عزيزة قضيت معها الطفولة والصبا ثم هاجرت مع أهلها والهجرة نوع من موت آخر نعاني فيه مرارة غيابهم وهم يعانون مرارة غربتهم وما أكثر الأبواب المغلقة والأحبة الغائبين. قرأت السطور على عجل ثم عاودت مرات ومرات. أغمضت عيني وغطيت وجهي بكفي. أحسست بهشاشة المعلق بين الأرض والسماء. سحبت نفسا عميقا. تحاملت على نفسي وخرجت أبحث عن بعض الأوكسجين فقد ضاق صدري. عدت مسرعة إلى البيت وكلماتها المتوجعة الشاكية تئن في روحي وجسدي. فلقد هوجمت من حيث لم أحتسب. عدت في الزمان سنين بعيدة. بعيدة هي ولكنها الآن أقرب من البارحة يوم كان عمو اسماعيل والد أيسر هذا هو اسمها. يأخذنا في سفرات إسبوعية إلى سامراء ولم اكن أدرك لحداثة سني سببا لتكرار هذه الزيارات إلا أن أخته تسكن هناك. كنا نزور المراقد الجليلة أولا ونمرح في ساحة المرقدين بينما يطول مقام عمو اسماعيل داخل الحرمين يتأمل بتؤدة وعناية بالغة دقائق الزخرفة والريازة التي تملأ المكان وبعد أن يكتفي يتكلم مع المسؤول هناك ثم يصحبنا إلى دار العمة لتناول الغداء وبعد الشاي تكون العودة إلى بغداد. وبتعاقب الزيارات أصبحنا نعرف الطريق ولنا في كل ركن إشارة.

ما جاء في الرسالة لم يكن كلمات كانت حروف تلهث ولم أكن أقرأ بل كنت أتداعى. أهي تعزية أم صرخة استنجاد؛ فالمصاب مصابنا وما كنت أعرف. تطلب النجدة لأنني هنا وكان باستطاعتي فعل شيء لو كنت أكثر وعيا في حماية الذاكرة الجمعية لبلد يراد له أن ينسى أصله وتراثه. حروفها تلهث وكأنها تحاول درء شيء قد وقع ولا تستطيع له ردا... تقول: لقد سمعت بما حدث. حتما لقد سمعت. أنت تعرفين مرقد الأمامين. تذكرين ما قاله أبي ونحن في بيت عمتي آمنه بأن جدنا الأكبر محمد علي العزي كان هو الفنان الذي أتم زخرفة جدران المقامين بالموزاييك والبورسلين. لقد أمضى سنتين من عمل شاق دؤوب بدءا من ١٩٠٥ أي قبل ولادة أبي بناء على طلب من الملك فيصل الأول. لأنه كان فنانا وصنائعيا مشهورا يعشق حرفته. كما أنه قد أنجز زخرفة العديد من جوامع النجف ومدن الجنوب. هل تذكرين يوم كان أبي يأخذنا كل جمعة لهذا المكان ويقول وهو يمسح على صدورنا بعد أن يمرر راحتيه على ستارة المرقدين -هذا تراثكم فشموا عبق المكان وروحانيته- ويكمل بعد أن يتطلع في وجوهنا المتسائلة -ستفهمون عندما تكبر عقولكم أن الأنسان بدون تراث لا قيمة له-. هل تذكرين يوم طلبت منه البقاء في سامراء وسألني -لم تريدين ذلك- قلت -لأنني أشعر بالراحة هنا- فرفض قائلا -عندما تكبرين ستعرفين قيمة ما تريدين وستحافظين عليه بالعقل وليس لمجرد الأحساس بالراحة- لم أفهم حينها وأنت أيضا لصغر سنك لم نفهم ولكننا تسللنا ليلا إلى المقام الخالي من الزوار وما كان يجوز لنا ذلك لولا أن؛ الكيم؛ يعرفنا فسمح لنا. هل تذكرين كيف ظللنا نصعد وننزل على المنبر حتى أخذنا التعب والنعاس فغفونا فوق الأرض المكسوة بالبسط وجاء أبي فأعادنا الى البيت ولم يعاتبنا بأية كلمة. هل تذكرين أن ابي كان هو الآخر رساما بارعا بالفطرة ولو لا انشغاله بالجيش لتفرغ إلى الرسم. يبدو أنه قد ورث الموهبة عن جده ويا ليتها كانت لي. فكيف يجرؤ عقل ما. يد ما. على هدم إرثي. يعتدي على روحي وحرماتي ويستخف بعقلي؛ وكيف يعاد ما هدم؛ ومن سيعيده إلى ما كان عليه بنفس الحب والصفاء وتقادم السنين عليه؛ هل تبكين معي؟ بحثت عن الدموع فلم أجد فقد جف حلقي وأمتلأ مرارة.